

فلسطين خلال العصر الحديدي الأول [نحو ١٠٠٠-١٢٠٠ ق. م.]

دراسة مقارنة بين الروايات التوراتية والبيانات الأثرية

زيدان كفاي

ملخص: تهدف الدراسة التي بين أيدينا إلى تسليط الضوء على الفترة بين نحو ١٢٠٠ إلى ١٠٠٠ قبل الميلاد، إضافة إلى المرور بشكل سريع على الفترة السابقة لها في فلسطين. قسمت الدراسة إلى ثلاثة موضوعات فرعية، هي: التوراة والأرض الموعودة، وسكان فلسطين في الفترة السابقة للعصر الحديدي (أي العصر البرونزي المتأخر)، وأخيراً مناقشة مجموعة من التساؤلات التي أثارها الباحثون مثل: هل دخل العبرانيون إلى فلسطين؟ ومن أين جاءوا؟ وآراء الباحثين بهذا الأمر. كما يستعرض البحث، وبشكل مختصر، مجموعة من تلك النظريات التي كان قد درسها عديد من الباحثين وناقشوها من قبل. ويخلص الباحث إلى نتيجة أن الخروج لم يكن بالصورة نفسها التي صوّرها كتاب العهد القديم، وأن الذي حصل أن النبي موسى عاد إلى مدين مع عائلته النواة، حاملاً معه ديناً موحداً أمنت به ١٢ اثنتا عشرة قبيلة، كانت تسكن جنوبي بلاد الشام، وشمال غربي الجزيرة العربية، وربما سيناء.

كلمات مفتاحية: فلسطين، العبرانيون، العصر الحديدي الأول، العصر البرونزي المتأخر .

Abstract: This paper aims at studying Palestine during the beginning of the Iron Age Period (ca. 1200 - 1000 BCE), in addition to throwing light on the preceding period (the Late Bronze Age). The study has been divided into three sub-subjects: The Bible and the promised land, the inhabitants of Palestine before the Iron Age and asking questions about the Exodus, and the Origin of the Hebrews. The researcher concludes that the Exodus, mentioned in the Bible, is completely different from the reality, and claims that it was only Moses with his nuclear family who left Egypt. However, Moses brought with him a new religion which had been adopted by 12 semi-nomadic local tribes who lived during the end of the Late Bronze and the beginning of the Iron Age South of the Levant and the Northwest of the Arabian Peninsula.

مقدمة

العصور قديماً وحديثاً؛ فقد خضعت للسيطرة المصرية خلال العصور البرونزية، وللرافدية والفارسية خلال العصور الحديدية، ولليونانية، والرومانية والبيزنطية في الفترات الكلاسيكية. ونظراً لذلك، تعرّض سكان هذه البقعة من الأرض - كما تعرّض غيرها من مناطق بلاد الشام - إلى دخول أعراق وأجناس متعددة إليها؛ لكن ذلك لم يغيّر من طابعها المحلي على الدوام. وإذا سلّم المرء بصحة النصوص التوراتية، فإنها تذكر أن الإسرائيليين قد احتلوا عن طريق الحرب أجزاء من البلاد، وليس كلها.

جاء اختيار الباحث لهذا الموضوع ليقدم مناقشة

كانت فلسطين في الفترة السابقة للعصر الحديدي الأول، أي في العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م.) عامرة بالمدن الكنعانية مثل: تل وقاص، بيسان، تل المتسلم، تل تعنك، كيسان، تل بيت ميرسم. وقد كان لسكان هذه المدن علاقات مع محيطها القريب والبعيد، إذ عُثر في تلك المواقع وغيرها على أعداد كبيرة من الأواني الفخارية المصنوعة في قبرص وبلاد اليونان، ومن المواقع الممتدة من السهل الساحلي الفلسطيني وحتى مناطق الأغوار. ويبدو أن فلسطين كانت وما تزال مطعماً للقوى الكبرى على مدى

فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» (التكوين ٣٢: ٢٧-٢٨).

إذا صحّت المعلومات الواردة في إصحاح التكوين، فهي تدلّ على أنّ الكنعانيين هم أصحاب الأرض، حتى قبل قدوم «أبرام» إليها. كما أن بقية القصة التوراتية تؤكد على أنه بسبب مجاعة حلت في بلاد كنعان، اضطر «أبرام» إلى تركها إلى مصر، واصطحب معه زوجته ساره أم إسحق، وإسحق هو والد يعقوب، كما أنه تزوج في مصر جارية مصرية، اسمها «هاجر»، وهي أم إسماعيل. وإذا كانت التوراة تقول لأبرام «لنسلك أعطي هذه الأرض» فأين هي حصة إسماعيل فيها؟ أليس هو من نسل «أبرام»، كذلك؟

ويذكر سفر التكوين (الإصحاح ٣٤) قصة دخول يعقوب وقومه إلى أرض كنعان، وغدرهم بأهل مدينة شكيم، بعد أن تشاركوا معهم في الأرض، وتاجروا وإياهم، وصاهروهم.

من هنا، توضّح القصة التوراتية أن كلاً من «أبرام» و«يعقوب» وذريتهم قد دخلوا بداية الأرض سلماً، وإذا كان الأول قد هاجر من كنعان إلى مصر نتيجةً لموجة قحط ألمّت بها؛ فإن الثاني وقومه احتلوا الأرض غدرًا وغيلةً. وتستمر التوراة في روايتها حول علاقة بني إسرائيل بفلسطين بقصة يوسف عليه السلام؛ إذ يعتقد بعض الباحثين أنها حصلت في زمن الهكسوس (نحو ١٧٥٠ - ١٥٥٠ ق.م.)، حين انتشله تجار مصريون من البئر وباعوه لرئيس الشرطة في مصر، وانتهى به الأمر وزيراً ومسؤولاً عن خزائن ومخازن الملك/الفرعون (بغدادى ١٩٩٦: ٥ - ٨). وتكتمل القصة بحضور إخوانه للحصول على القمح من مصر، وتعرّفه إليهم، ومن ثم يعرفهم بنفسه، ويستقرون بمصر. ويظهر أنهم عاشوا فترة رخاء في مصر، لكنهم لم يندمجوا مع المصريين، بل تمسكوا بعنصريتهم. ويبدو أن هؤلاء قد سيطروا بشكل غير مباشر على الحكم في مصر؛ ما أدى إلى كراهيتهم من أهل البلاد، وانتهى الأمر بظهور فرعون، ربما كان

علمية تستند إلى مصادر آثرية، وكتابات تؤرخ للمرحلة الواقعة بين عام ١٢٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.، وهي المرحلة التي شهدت دخول العبرانيين إلى فلسطين، واستيلائهم على بعض المدن الكنعانية فيها عنوة، حسب ما ورد في التوراة، ومن ثم قيامهم بتأسيس المملكة الموحدة بقيادة شاؤول نحو العام ١٠٠٤ ق.م.؛ ويشكل هذا الزعم التوراتي، فضلاً عن أن الرب قد وعد بمنح هذه البقعة من الأرض لأبرام وذريته، الركائز التي تعتمد عليها الصهيونية العالمية في احتلالها لفلسطين المعاصرة.

تضم مناقشة هذا الموضوع المحاور الآتية:

١. التوراة والأرض الموعودة.
٢. سكان فلسطين في العصر البرونزي المتأخر.
٣. هل دخل العبرانيون إلى فلسطين؟ ومن أين جاءوا؟ وآراء الباحثين بهذا الأمر.

التوراة والأرض الموعودة

يعتقد كثير من الباحثين أن خروج بني إسرائيل من مصر إلى كنعان (الأرض الموعودة) كان مع نهاية الألف الثانية ق.م. (Albright 1971: 112)، وهذا يتماشى مع النص التوراتي؛ إذ جاء في سفر التكوين في التوراة على أن كنعان هو ابن حام أحد أبناء نوح؛ إذ تذكر القصة التوراتية أن أبناء نوح الذين خرجوا من الفلك هم: سام وحام ويافت (التكوين ٩: ١٨ - ٢٦).

وقد ورد في التوراة أن الإخوة الثلاثة «سام وحام ويافت» توزعوا على بقاع الأرض، بعد أن حُكِم على كنعان بن حام بأن يكون عبداً لسام ويافت. وتستمر الحكاية التوراتية لتوضّح كيف خرج أبرام من حرّان إلى بلاد كنعان، وهي أرض ابن نوح المغضوب عليه. وتتحدث كيف أن الرب أمر أبرام ليأخذ عشيرته إلى أرض كنعان (التكوين ١٢: ١-٩). وكان لأبرام ولدان، هما، إسحق وإسماعيل، وولد لإسحق ابن أسماه يعقوب الذي ينسب إليه بنو إسرائيل، وأسمى الرب «إسرائيل» بناء على القصة التوراتية المذكورة أدناه:

«فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب إ»

بَلْ قَالَ لِي الرَّبُّ: كَفَاكَ إِلا تَعُدُّ تُكَلِّمُنِي أَيْضًا فِي هَذَا الأَمْرِ.

٢٧. اصْعَدْ إِلَى رَأْسِ الفَسْجَةِ وَارْفَعْ عَيْنَيْكَ إِلَى الغَرْبِ وَالشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ، وَأَنْظِرْ بَعَيْنَيْكَ، لَكِنَّ لا تَعْبُرْ هَذَا الأَرْدُنَّ.

ويؤكد على هذا الأمر ما ورد في السفر نفسه (التثنية ٣٤: ٤): «وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «هذه هِيَ الأَرْضُ الَّتِي أَقْسَمْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بَعَيْنَيْكَ، وَلَكِنَّكَ إِلى هُنَاكَ لا تَعْبُرُ».

٢. تقلب بنو إسرائيل في العقيدة، فالنبي موسى نادى بعبادة إله واحد «إلوهيم»، وها هم يعبدون «يهوه»، فهل كان الوعد بمنح الأرض من هذا الإله أو ذاك؟ إضافة إلى ذلك فإن الوعد أعطي لجيل من اليهود، الذي خرج من مصر وتاه في الصحراء لمدة أربعين عاما؛ لذا، فإن هذا الجيل صاحب الوعد قد قضى مع مرور السنين ولم يدخل أرض الميعاد؛ ويرى الباحث أن ذلك يُسقط الوعد الإلهي لأنه أعطي لجيل لم يعد موجوداً.

إذا كانت التوراة أعطت أرض كنعان لبني إسرائيل بوعد إلهي لأبرام وموسى، فإن الكلام حول الأرض الموعودة قد تغير بعد موت موسى واستلام يشوع بن نون مقاليد الأمر؛ فهذا هو الأرض الموعودة تمتد من الفرات إلى النيل، كما ورد في سفر يشوع، وعلى النحو الآتي:

١. «وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً

٢. موسى عبدي قد مات فالآن قم اعبّر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل.

٣. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى.

٤. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر

رمسيس الثاني (نحو ١٢٨٠ - ١٢١٣ ق.م.) الذي صبّ عليهم جام غضبه، فتجرعوا مرارة الذل والاستعباد. وفي هذا الوقت، بيعت الله «موسى» نبياً ليخلصهم من عبوديتهم واضطهادهم، فانطلق موسى بقومه من أرض مصر متوجهاً إلى الأرض المقدسة. ومن المعلوم أن بني إسرائيل قد تمردوا خلال التيه على نبيهم موسى، فعبدوا العجل وغفلوا عن عقيدة التوحيد. وتشير هذه الردة الدينية إلى مدى تأثر بني إسرائيل بتعدد الآلهة، وهذا ناتج عن معاشتهم للمصريين. وتكرر هذا الأمر بعد انقسام الدولة الموحدة في نحو ٩٢٢ ق.م، أي بعد وفاة سليمان، فأقام الملك يربعام الأول عاصمته في السامرة وزوّدها بعجلٍ ذهبيٍّ، وبنى مكانين لعبادة العجل في موقعي «بيت إيل» و«دان» (بغدادى ١٩٩٦: ١٥).

ويُستنتج مما ورد آنفاً أن علاقة بني إسرائيل الدينية وحتى العاطفية تجاه نبيهم موسى كانت مهزوزة، وأن أحاسيسهم اتجاهه متقلبة، بل إنهم ربما ندموا على الخروج من مصر، إذ إنهم كانوا في حالة تبرّم وشكوى دائمة (العدد ١٣: ١-٣٣). وربما لا تزيد قصة الخروج هذه عن رحلة من الرحلات التي كانت متواصلة بين جنوبي بلاد الشام ومصر خلال العصور القديمة، لكن التوراة أعطتها بُعداً دينياً أكثر مما كانت عليه، ومن هنا تبدأ قصة الأرض المقدسة الموعودة بالخروج من مصر، مروراً بالتيه في الصحراء، وتنتهي بدخول العبرانيين إلى أرض كنعان.

واعتماداً على القصة التوراتية، يمكن استنتاج:

١. أن الوعد بالأرض المقدسة لبني إسرائيل أعطي من الرب لنبيه موسى عليه السلام، لكن موسى وحتى أخاه هرون لم يدخلوا إلى أرض الميعاد، وإنما دخل القوم بقيادة يشوع بن نون. وجاء في سفر التثنية (٣: ٢٥-٢٧؛ ٤: ٣٤) ما يأتي:

«٢٥. دَعْنِي أَعْبُرُ وَأَرَى الأَرْضَ الجَيِّدَةَ الَّتِي فِي عَبْرِ الأَرْدُنِّ، هَذَا الجَبَلُ الجَيِّدُ وَلِبْنَانُ.

٢٦. لَكِنَّ الرَّبَّ غَضِبَ عَلَيَّ بِسَبَبِكُمْ وَلَمْ يَسْمَعْ لِي،

الإسرائيلية الموحدّة إلى غربي النهر؟

وللإجابة عن هذا السؤال، يشير الباحث إلى أن هذا الوعد الإلهي لم يرد إلا في الكتب السماوية، كما أن المصادر التاريخية المكتوبة، سواء الفرعونية أم الرافدية لم تأت على ذكر خروج بني إسرائيل أو دخولهم عنوة أو سلماً إلى فلسطين الجغرافية. وهذا باختصار حول دلالات القصة التوراتية التي تعترف بأن الكنعانيين هم سكان الأرض الموعودة حتى قبل مجيء «أبرام» إليها، كما أن الوعد أعطي لنسل «أبرام» ومن بينهم ابنه «إسماعيل» أبو العرب. إذاً، لماذا يزعم الصهاينة أن هذه الأرض لهم؟ ومن هنا، فهم يدينون أنفسهم بأنفسهم.

لكن هل فلسطين الجغرافية هي بلاد كنعان التوراتية؟ والسبب في طرح هذا السؤال، أن ما أعطي توراتياً لأبرام هو بلاد كنعان، وليس فلسطين. وأعتقد أن السبب في تحديد هذا الاسم «كنعان» وإطلاقه على بقعة جغرافية محددة سببه أن الاسم «فلسطين» لم يكن موجوداً آنذاك، أي في العصر البرونزي المتوسط (نحو ٢٠٠٠ - ١٥٥٠ ق.م). ويقترح الباحثون، خاصة التوراتيون منهم، أن قدوم ابرام إلى كنعان كان في نحو ١٩٠٠/١٨٠٠ ق.م. (Kenyon 1970: 162). كما أن الاسم «فلسطين» أطلق في مرحلة لاحقة على جزء بسيط من بلاد الشام، وهي المنطقة التي شغلها قبيلة «البلست» من قبائل شعوب البحر، وحيث أن الأمر كذلك، فقد حاول الباحثون تحديد بلاد كنعان، وفلسطين جغرافياً، كما هو وارد أدناه.

يجادل كثير من الباحثين أن الكنعانيين خرجوا من الجزيرة العربية إلى شماليها، لكن، وحتى الآن، لم تؤكد هذا الأمر أو تنفيه المصادر والوثائق التاريخية المكتوبة (Lemche 1991: 25)، غير أن النصوص التوراتية أشارت إلى أن الكنعانيين كانوا العنصر الأساس بين سكان فلسطين (يوشع ١٣: ٤؛ العدد ١٣: ٢٩). وأطلقت التوراة، على سبيل المثال، اسم «ملك كنعان» على حاكم مدينة تل وقاص «Hazor»، الواقعة في سهل الحولة

الضرات جميع أرض الحثيين و إلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم» (يشوع ١: ٤-١).

ويرى الباحث أن قصة الأرض المرتبطة بوعد إلهي جاءت من حقيقة أن بني إسرائيل لم يكن لهم بأي حال من الأحوال مستقر ووطن ثابت حسب القصص التوراتية؛ فهم مروا بتلك البلاد كغيرهم من الأقوام والأجناس البشرية التي كانت استقرت في بلاد الشام منذ القدم وحتى الوقت الحاضر. ومما يجدر ذكره أن القصص التوراتية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحديث عن المكان ولا تركز على الزمان، وذلك لبحث بني إسرائيل عن بقعة جغرافية تأويهم. ومن هنا، فإن فكرة الحصول على الأرض لها اليد العليا فوق كل القيم والأخلاق عندهم؛ وأكبر دليل على هذا استخدام الزانية الساكنة في أريحا وسؤالها عن الأرض وساكنيها. واعتماداً على ما ورد آنفاً كان لا بد لهؤلاء القوم، وبعد تبنيهم ديانة التوحيد وهي ديانة جديدة في المنطقة، من إيجاد ملاذ لهم، فتم اختراع قصة الأرض الموعودة.

وتذكر التوراة أن أبرام خرج من أور في جنوبي العراق، وذهب إلى حرّان، ومن ثم إلى الخليل، وبعدها إلى مصر؛ كما أن ذرية يعقوب انتقلت من كنعان إلى مصر؛ وكل هذا يدل على عدم وجود مستقر ثابت لبني إسرائيل، أي لم يكن لهم وطن طيلة الدهر. وعندما استقام لهم الأمر، وتوحدوا دينياً، بحثوا عن منطقة جغرافية تؤويهم، وتصلح لحياة رغيدة، وبما أنه كان من الصعب عليهم العودة إلى مسقط رأس أبرام لسيطرة الآشوريين وقوتهم ونشر نفوذهم على المنطقة آنذاك، وظهور الممالك الآرامية والعمونية والمؤابية والأدومية في معظم مناطق بلاد الشام الجغرافية، كان لا بد من الذهاب إلى المنطقة الأضعف، فكانت منطقة غربي نهر الأردن/ فلسطين الحالية التي كانت مقسّمة إلى دويلات، كل مدينة تحكم نفسها بنفسها، كما أنها تعرّضت في الوقت نفسه لغزوات شعوب البحر، والتي استقرت قبيلة منها على سواحل البحر المتوسط الجنوبية. لكن السؤال؛ كيف دخلت هذه القبائل

- ٤- وَيَدُورُ لَكُمْ التَّخَمُ مِنْ جَنُوبِ عَقَبَةِ عَقْرِيَّيمَ، وَيَعْبُرُ إِلَى صِينَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ مِنْ جَنُوبِ قَادَشَ بَرْنِيْعَ، وَيَخْرُجُ إِلَى حَصْرِ أَدَارَ، وَيَعْبُرُ إِلَى عَصْمُونَ.
- ٥- ثُمَّ يَدُورُ التَّخَمُ مِنْ عَصْمُونَ إِلَى وَادِي مِصْرَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ الْبَحْرِ.
- ٦- وَأَمَّا تَخَمُ الْغَرْبِ فَيَكُونُ الْبَحْرُ الْكَبِيرُ لَكُمْ تَخَمًا. هَذَا يَكُونُ لَكُمْ تَخَمُ الْغَرْبِ.
- ٧- وَهَذَا يَكُونُ لَكُمْ تَخَمُ الشَّمَالِ. مِنَ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ تَرَسُمُونَ لَكُمْ إِلَى جَبَلِ هُورَ.
- ٨- وَمِنْ جَبَلِ هُورَ تَرَسُمُونَ إِلَى مَدْخَلِ حَمَاءَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُ التَّخَمِ إِلَى صَدَدَ.
- ٩- ثُمَّ يَخْرُجُ التَّخَمُ إِلَى زَفْرُونَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ حَصْرِ عَيْنَانَ. هَذَا يَكُونُ لَكُمْ تَخَمُ الشَّمَالِ. ١٠ وَتَرَسُمُونَ لَكُمْ تَخَمًا إِلَى الشَّرْقِ مِنْ حَصْرِ عَيْنَانَ إِلَى شَفَامَ.
- ١١- وَيَنْحَدِرُ التَّخَمُ مِنْ شَفَامَ إِلَى رَيْلَةَ شَرْقِيَّ عَيْنَ. ثُمَّ يَنْحَدِرُ التَّخَمُ وَيَمَسُّ جَانِبَ بَحْرِ كِنَارَةَ إِلَى الشَّرْقِ.
- ١٢- ثُمَّ يَنْحَدِرُ التَّخَمُ إِلَى الْأُرْدُنِّ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ بَحْرِ الْمَلْحِ. هَذِهِ تَكُونُ لَكُمْ الْأَرْضُ بِتُخُومِهَا حَوَالِيهَا».

ويبدو أن حدود كنعان لم تكن ثابتة، إذ إنها تختلف من نص تاريخي لآخر، ومن فترة زمنية لأخرى، لكن يتفق أغلب الباحثين على أنها المنطقة الممتدة من وادي العريش بقطاع غزة بفلسطين جنوباً، وحتى شمالي أعالي جبال لبنان شمالاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً، وحفرة الانهدام (سهل البقاع، جبال الجولان وغور الأردن، والبحر الميت شرقاً) (Hackett 409: 1997). وبلغ الكنعانيون قمة ازدهارهم خلال العصر البرونزي الأخير، مع أن نجمهم كان قد بزغ خلال العصر البرونزية القديمة والمتوسطة (Tubb 1998)؛ ومن هنا، يرى الباحث أن الإسرائيليين كانوا يبحثون عن وطن لهم؛ لذا، طالبهم موسى بالاستيلاء على أرض كنعان، فهي ليست أرضهم ولم يرثوها عن

بشمالي فلسطين (القضاة ٢٠٤: ٢٣-٢٤).

يذكر عمر الغول (٢٠١٦: ١٥) أن عدد الشواهد التاريخية على وجود الكنعانيين لا تزيد عن الأربعين شاهداً متفرقة زمنياً ومكانياً؛ ما دفعه إلى القول «ولا توافينا بصورة واضحة المعالم عن حضارة ذات شخصية متكاملة الهوية في اللغة، والديانة، والعمارة، والفخار، وبناء المدن...». ورد اسم العلم «كنعان» على شكل kn'n في النصوص الأوغاريتية، والفنيقية/البونية، وكتب بأشكال مختلفة في وثائق وادي الرافدين، ومصر، وبلاد الأناضول (Hackett 1997: 408; Gray 1965: 15-16). والاسم كنعان مشتق من الكلمة «kinahna»، وهي سامية الأصل، أطلقها سكان وادي الرافدين خلال النصف الثاني على منطقة سواحل البحر الأبيض المتوسط الشامية؛ وكتب الاسم «كنعان» أو «كنعاني» لأول مرة في نصوص تل الحريري «ماري» المؤرخة للقرن الثامن عشر ق.م.؛ واختفى بعدها من الوثائق والنصوص التاريخية، ولم يظهر بعد ذلك إلا في القرن الخامس عشر ق.م.، في نص للفرعون أمنحوتب الثاني، والذي يذكر فيه أنه طارد الكنعانيين. بعد هذا تكرر ذكر كنعان في وثائق القرون اللاحقة، مثل ما ورد في رسائل تل العمارنة، ونقش الملك «إدريمي» ملك تل العطشانه «الألاخ» بشمال غربي سوريا (Astour 1965). من هنا، يُلاحظ أن اسم المكان هذا ورد في نصوص من خارج كنعان، أي أن أهل كنعان لم يسموا أنفسهم باسم «الكنعانيين».

وأما التوراة (العدد ٣٤: ١-١٢) فتحدد أرض كنعان التي وعدها الله لنبية موسى على النحو الآتي:

- ١- وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا:
- ٢- أَوْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. هَذِهِ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي تَقَعُ لَكُمْ نَصِيبًا. أَرْضُ كَنْعَانَ بِتُخُومِهَا:
- ٣- تَكُونُ لَكُمْ نَاحِيَةُ الْجَنُوبِ مِنْ بَرِّيَّةِ صِينَ عَلَى جَانِبِ أَدُومَ، وَيَكُونُ لَكُمْ تَخَمُ الْجَنُوبِ مِنْ طَرْفِ بَحْرِ الْمَلْحِ إِلَى الشَّرْقِ،

الإغريق، مثل هيرودت، وأنها هي المنطقة الجغرافية الممتدة على الجزء الجنوبي من بلاد الشام. أما الكتاب الروميون من أمثال سترابو وديودور، فقد ذكروا أن مصطلح «بالستين» الجغرافي يشمل الأرض المقدسة، وأخذ هذا المصطلح صفته الرسمية خلال العصر البيزنطي، أي بعد دخول الناس في هذه المنطقة في الديانة المسيحية والاعتراف بها كدين رسمي للدولة البيزنطية، ابتداءً من حكم هدریان نحو سنة ٣٢٤ ميلادية (إبراهيم ٢٠١٠: ١١-١٣).

ومن المفيد القول إنه وخلال العقود القليلة الماضية اقترح بعض الباحثين العرب من أمثال كمال الصليبي وفاضل الربيعي أن أصل اليهود كان في الجزيرة العربية ولم يكن في كنعان، واعتمد هؤلاء في مقترحهم على الاشتقاق اللغوي لأسماء المواقع والأماكن الواردة في التوراة، وما هو موجود على أرض الواقع في الوقت الحاضر. كما وضعها آخرون في شمال غربي سوريا الحالية؛ إذ إنه واعتماداً على ورود الاسم «بلستين» في نقش «لوفي» عثر عليه في معبد إله العاصفة في قلعة حلب قبل بضع سنوات، اقترح الأمريكي تيموثي هاريسون (Timothy Harrison) أن مملكة «بلستين» كانت في أعالي نهر العاصي، وكانت عاصمتها موقع «تل تينات/طعينات» الحالي، وأن هذه المملكة سيطرت على مدينة حلب خلال القرن الحادي عشر ق. م. (Harrison 2009; 2013: 76-77).

خلاصة القول، واعتماداً على ما ورد آنفاً فإن من الصعب الجزم بحدود الأرض الموعودة جغرافياً حتى بالاعتماد على النصوص التوراتية؛ فلا حدود كنعان، ولا الأرض المقدسة، محددة بصورة دقيقة.

سكان فلسطين في العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م.)

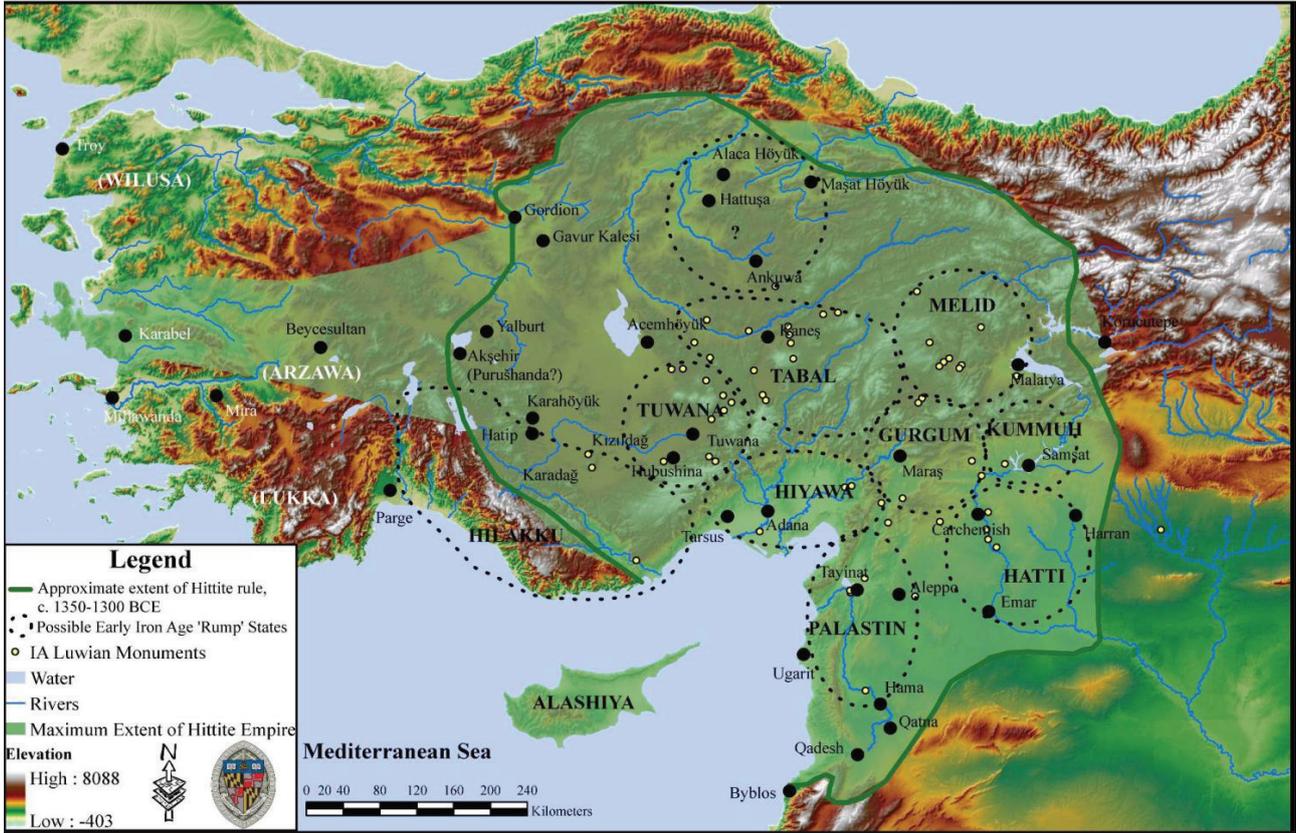
تشكل فلسطين الجزء الجنوبي الغربي لبلاد الشام، وهي لا تتفصل جغرافيتها، أو تاريخها، أو حتى سكانها عن بلاد الشام؛ فهي بهذا تعد جزءاً من كل. وتشير الدلائل الأثرية المكتشفة في فلسطين إلى أن الناس،

أسلافهم. وهذا يثبت أن فكرة الوطن عند بني إسرائيل تختلف عن غيرهم من الأمم، إذ إنها جاءت بعد ظهور بني إسرائيل إلى حيز الوجود، أي أن الوطن جاء بعد وجود القوم.

أما الشواهد الأثرية على وجود الكنعانيين فيمكن القول إنها غير موجودة، فلم يعثر حتى الآن على أي دليل مادي مكتوب عليه أنه كنعاني، أو صنع في كنعان. وحتى يتم تفسير الأمر بشكل أوضح، عثر على بعض القصور الآشورية كتابة تنص على أن من بناه هو الملك الآشوري فلان، وهذا ما لم يعثر عليه في كنعان حتى الآن (الغول ٢٠١٦: ١٣). لكن الأثريين ينسبون ما عثر عليه في البقعة المحددة أعلاه، وتعود للعصور البرونزية إلى كنعان، ويطلقون عليها الآثار الكنعانية.

أما بخصوص الاسم «فلسطين»، فيرى كثير من الباحثين أن أصله جاء مع قبائل شعوب البحر التي هاجرت خلال بداية القرن الثاني عشر ق. م. نتيجة لقحط حل هناك من بلاد اليونان/مايسينيا واستقرت على سواحل البحر المتوسط الشرقية، ومنها قبيلة «البلست» التي استقرت على الجزء الجنوبي من السهل على الساحل الفلسطيني، وأعطت اسمها للمنطقة هذه. ورد ذكر اسم شعوب البحر لأول مرة في رسائل تل العمارنة، المؤرخة للقرن الرابع عشر ق. م.؛ إذ ترد إشارات مصرية تصفهم بأنهم كانوا محاربين وبحارة عملوا جنوداً مرتزقة لمن يستأجرهم (Dothan and 1992).

لم يستخدم الاسم «فلسطين/فلسطين» للدلالة على منطقة جغرافية قبل نحو ٨٠٠ ق. م.، حين وردت في السجلات الآشورية من أيام الملك «أدد نيراري الثالث». وقد ورد في نقش على مسلة له تعود للسنة الخامسة من حكمه أن قواته أخضعت «فلسطين» وأجبرت أهلها على دفع الجزية. وتكرر ذكر «فلسطين» في السجلات الآشورية من عهد ملوك آخرين من أمثال، تيجلات-بيلاسر الثالث (٧٣٤ ق. م.). وتحول الاسم من «فلسطين» إلى «بالستين» عند المؤرخين والرحالة



الخريطة ١: تبين الممالك الحثية- اللوفية في الأناضول وشمال غربي سوريا (بإذن من تيموثي هاريسون)

وأفريقيا، وأوروبا، وقد سكنتها عناصر من جنسيات وأعراق مختلفة إلى جانب سكانها الأصليين.

شهدت الألف الرابعة ق.م. ظهور أنماط اقتصادية واجتماعية أدت إلى ظهور المجتمعات المتمدنة، وبناء المدن خاصة مع بداية الألف الثالث ق.م. (نحو 3000-2900 ق.م.)، ومن الأمثلة على هذه المدن في فلسطين تل المتسلم في سهل مرج ابن عامر، وتل عراد على الأطراف الشمالية الشرقية لصحراء النقب. ومن المعلوم للباحثين الأثريين أن معظم هذه المدن دمرت مع نهاية الألف الثالث ق.م. لسبب ما، فتحول معظم سكانها إلى أنصاف بدو، أي يمارسون نوعاً بسيطاً من الزراعة إلى جانب الرعي وتربية الماشية (Dever 1998: 289-293).

عادت المدن في جنوبي بلاد الشام إلى الظهور مرة أخرى مع بداية الألف الثانية ق.م.، فسكن الناس المدن والقرى إلى جانب المجتمعات البدوية.

بصرف النظر عن جنسهم أو عرقهم، عاشوا في هذه البلاد قبل نحو مليون ونصف المليون سنة، بدلالة ما اكتُشف من بقايا أثرية وإنسانية في جبال الجليل والكرمل وغور الأردن (Garrod and Bate 1937). وما تزال هذه البقعة من الأرض معمورة بسكانها حتى الوقت الحاضر دونما أي انقطاع أو فجوة سكانية. وقد شهدت فلسطين -كغيرها من مناطق بلاد الشام الأخرى- التحول الاقتصادي من الصيد والجمع والتجوال في طول البلاد وعرضها إلى الاستقرار في قرى زراعية كبيرة، عرف أهلها بناء البيوت وبناء التحصينات؛ وأفضل مثال على مجتمعات الفلاحين الأوائل جاء من موقع تل السلطان في أريحا (Kenyon 1957). ونظراً لعدم وجود الكتابة من عصور ما قبل التاريخ، فليس من الممكن الحكم أو القول من هم سكان فلسطين في تلك الفترات. ومع ذلك يمكن الإشارة إلى أن فلسطين كانت وما تزال تعدّ حلقة اتصال عالمي بين قارات آسيا،

أيضاً. كما حددت تلك القوائم طبيعة العمل، والطبقة الاجتماعية لكل جنس من هؤلاء السكان، فكان هناك «الماريانو» وهم طبقة الأشراف ومحاربي العربات، والكنعانيون وهم التجار، أما العابيرو «Apiru/Abiru» فلم يشكلوا جنساً أو عرقاً واحداً، بل كانوا خليطاً من الأجناس ويعملون مرتزقة (Ahlström 1993: 235). ونظراً لأن جنوبي بلاد الشام، وبخاصة فلسطين، وقعت تحت الحكم الفرعوني خلال العصر البرونزي المتأخر، فقد سكنت في عدد من المدن الفلسطينية مثل غزة وتل المتسلم وبيسان، مجموعة من الجاليات المصرية، وعين فرعون في كل مدينة مندوباً سامياً مصرياً أسمته الوثائق الفرعونية اسم «رابسو»، وتعني هذه الكلمة «مفوض أو مفتش».

وفضلاً عما ذكر آنفاً، فقد انتشرت في بلاد الشام قبائل بدوية تنقلت وبخاصة في جنوبي بلاد الشام وسيناء وقد أسمتهم الوثائق الفرعونية باسم «شاسو»، ويعتقد بعض الباحثين (Ahlström 1993: 276) أنهم هم «السوتيون» الذين ذكروا في الوثائق الأكادية وفي رسائل تل العمارنة.

هذا عن السكان في فلسطين في المرحلة السابقة لتشكيل ما نعرفه باسم «الدولة اليهودية الفلسطينية الموحدة» إلى جانب عدد من الدول الأخرى مع بداية الألف الأولى ق. م.؛ لكن هل كانت تلك البلاد خالية من المدن الكبيرة، أو المراكز الحضارية؟ ترد الإجابة عن ذلك من خلال نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في عدد من المواقع الأثرية في فلسطين، مثل: تل وقاص، وبيسان، وتل المتسلم، وتل تعنك، وأريحا، وتل العجول، وغيرها الكثير. وثبت بالوجه القاطع أن البلاد كانت بسواحلها وجبالها وأغوارها ونقبها مأهولة بالناس وبالمواقع الحضرية. وكان لسكانها اتصالات مع المحيط القريب والبعيد. وثبت هذا من تشابه المادة الأثرية المكتشفة؛ فمثلاً، عُثر على أوان فخارية وغيرها مستوردة من قبرص وبلاد اليونان ومصر؛ وهذا يؤكد بشكل قاطع أن فلسطين كانت عامرة بأهلها الكنعانيين قبل الخروج من مصر والدخول إلى فلسطين. وقد

وقد كشفت الحفريات الأثرية التي جرت في مواقع متعددة من بلاد الشام، مثل، تل الحريري (ماري)، ورأس شمرة (أوغاريت) عن معلومات تحدد جنس سكان هذه المنطقة وطبيعة حياتهم. وبالفعل، كان هناك ذكر للحضر الكنعانيين، والبدو الأموريين (كفافي ٢٠١١: ٢٤٩ - ٢٥٥). ويوصف المجتمع الكنعاني بأنه مجتمع متحضر عاش في مدن ومراكز حضارية، وكانت التجارة هي الأساس الذي ارتكز عليه الاقتصاد. كما كان المجتمع الكنعاني متعدد الطبقات؛ إذ كان فيه الغني، والفقير، والتاجر، والعامل، والفلاح. وكانت للكنعانيين ديانتهم الخاصة بهم، وتجلت بتعدد الآلهة وتقديم الأضحيات لها، وأكد على هذا الأمر النصوص المكتوبة التي وجدت في موقع رأس شمرة بسوريا وتؤرخ لنحو ١٤٠٠ ق. م. (Kenyon 1963; Miller 1981). (Tubb 1998).

تمتعت بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الثانية ق. م. (نحو ٢٠٠٠ - ١٥٥٠ ق. م.) بنوع من الحرية السياسية، وساد فيها نظام يعرف باسم المدينة - الدولة (City-State) أي أن كل مدينة لها حاكم وتحكم نفسها بنفسها. وبقي هذا النظام سائداً في فترة العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م.)، أي المرحلة السابقة لتشكيل الدولة الوطنية (National State) مع بداية العصر الحديدي (نحو ١٢٠٠ ق. م.). لكن هذه المدن، ونتيجة لطرد الهكسوس من مصر، وتأسيس الدولة الحديثة فيها، قام الفراعنة المصريون وعلى رأسهم الفرعون تحتموس الثالث (نحو ١٤٩٠ - ١٤٢٦ ق. م.) بإخضاع الجزء الواقع إلى الجنوب من مدينة حلب لسيطرتهم. وقد ترك هؤلاء الفراعنة قوائم بأسماء الأقوام والمدن التي هزموها وسيطروا عليها، ومنهم: «النيجس Neges»، والحوريون، والشاسو، والكنعانيون، والعاييرو (Wilson 1969: 246-247). كما ساعدت تلك القوائم الباحث في التعرف إلى التوزيع الجغرافي لهذه الجماعات، فمثلاً سكن النيجس شمالي سوريا الحالية، والحوريون والكنعانيون في فلسطين، والشاسو بوادي جنوبي بلاد الشام، وربما سيناء

مدينة الخليل. وناقش أولبرايت موضوع كيفية احتلال الإسرائيليين لأرض كنعان في مقالة نشرها في عام ١٩٣٥م، وعنوانها: (Albright, W. F. 1935; Archaeology and the Date of the Hebrew Conquest of Palestine. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 10-18: 58).

رصد أولبرايت في هذه المقالة نتائج الحفريات التي أجريت في عدد من المواقع الفلسطينية المذكورة في النصوص التوراتية، والتي لها علاقة بالهجوم عليها من قبل الإسرائيليين، مثل مدن: أريحا، وبيتين (بيت إيل)، وتل الدوير (لاخيش)، وتل بيت مرسم، وتل المتسلم (مجدو). وعلى سبيل المثال، أشار إلى أن الاحتلال الإسرائيلي لموقع تل بيت مرسم حدث في الفترة بين نحو (١٢٥٠-١٢٠٠) ق.م.، إذ أظهرت نتائج الحفريات في الموقع طبقة أثرية مدمرة تؤرخ لهذه الفترة. وقابل هذه النتائج بما ورد من معلومات حول بني إسرائيل في سفر يشوع والخروج (Albright 1935: 10-16).

بعد تأسيس دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، واحتلال الضفة الغربية سنة ١٩٦٧م أعاد الأثريون الإسرائيليون التقيب في عدد من المواقع المذكورة أعلاه، للتأكد من النتائج التي نشرها أولبرايت، وبخاصة التسلسل التاريخي للاستيطان الإسرائيلي فيها؛ خاصة وأن بعض النتائج التي نشرها أولبرايت لا تتوافق مائة بالمائة مع النص التوراتي (Albright 1939: 11-12)، كما أن آخرين من الباحثين، مثل الألماني مارتن نوت (Martin Noth) لم يتفق وألبرايت على المنهج الذي اتبعه في استخدام نصوص العهد القديم للتأريخ، وتتبع الهجمات العسكرية الإسرائيلية على المدن الكنعانية (Noth 1948; 1958).

ومن الأمثلة على التناقض الحاصل بين القصص التوراتية ونتائج الحفريات الأثرية من موقع التل، فقد بينت الحفريات الأثرية التي أجراها كل من جون غارستنج (John Garstang) في العام ١٩٢٨م، وجوديث ماركيت-كراوزه (Judith Marquet- Krause) بين الأعوام ١٩٣٣ و١٩٣٥م، وجوزيف كالواي (Joseph Callaway) بين

تحدثت الوثائق والكتابات، خاصة الفرعونية عن المدن الكنعانية بأسمائها وأسماء ملوكها.

لقد كانت فلسطين مليئة بالمراكز الحضارية، فكيف استطاعت هذه المجتمعات البدوية -حسب رأي التوراة- الدخول إلى فلسطين والسيطرة على أجزاء منها، وتشكيل دولة فيها؟ وسيحاول الباحث أن يجيب عن مجموعة من الأسئلة، وهي: هل دخل الإسرائيليون إلى فلسطين؟ من أين جاءوا؟ وما آراء الباحثين في هذا الأمر؟

شغلت الإجابة عن السؤال المتعلق بكيفية دخول الإسرائيليين إلى أرض كنعان الباحثين منذ القرن التاسع عشر، حين تأسست المدارس والمعاهد الأوروبية والأمريكية في النصف الثاني منه بهدف إثبات صحة ما جاء في التوراة، وحتى الوقت الحاضر. وحتى يستقيم الأمر لهم، اتخذوا من البقايا الأثرية وسيلة، وربطوا بينها وبين الحدث التوراتي. وقد تطور هذا المنهج عبر السنوات من خلال وضع مجموعة من النظريات؛ لكنها على إطلاقها، وبنظر الباحث، لم تخلع عباءة التوراة. ويستعرض الباحث، وبشكل مختصر، مجموعة من هذه النظريات التي كان قد درسها مجموعة من الباحثين وناقشوها من قبله، ومنهم غسان نجاجة (نجاجة ٢٠١١).

١. النظرية التوراتية التقليدية (نظرية احتلال كنعان بالقوة)

تعتمد هذه النظرية على السرد القصصي التوراتي، والتي تلتزم بما ورد في التوراة، بأن الإسرائيليين خرجوا من مصر بقيادة موسى وأخيه هرون، وأنهم تاهوا مدة أربعين سنة في الصحراء؛ لكنهم استطاعوا الدخول إلى أرض كنعان واحتلال مجموعة من مدنها بالقوة، أي الاحتلال العسكري خلال العصر الحديدي الأول (نحو ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م.). وصاحب هذه النظرية هو الأمريكي وليم فوكسول أولبرايت (William Foxwell Albright) الذي قام في ثلاثينيات القرن الماضي بالتقيب في موقع «تل بيت مرسم» الواقع بالقرب من



الخريطة ٢: أهم مواقع بلاد الشام في العصر البرونزي المتأخر.

حتى يتم تدميرها كما ورد في سفر يشوع (Aharoni 1976: 71-75).

٢. نظرية التسرب السلمي

صاحب هذه النظرية هو الألماني ألبرشت ألت (Albrecht Alt) والذي ناقش قضية دخول بني إسرائيل وسكناهم في أرض كنعان في مقالة نشرها عام ١٩٢٥ ميلادية (Alt 1925). وطالب ألت بضرورة الاعتماد على المصادر الفرعونية المكتوبة المؤرخة للفترة السابقة للخروج من مصر لأنها تتضمن معلومات كاملة حول ما كان يجري فيها في تلك الفترة؛ وأكد في بحثه على ضرورة أخذ التقسيمات الجغرافية السياسية لأرض كنعان بالاعتبار عند الحديث حول طبيعة حياة سكان تلك المناطق. ويرى أن الطبيعة الجغرافية وبيئة المنطقة أثرت على التوزيع السكاني في هذه البلاد، وعلى إنشاء وحدات سياسية واصلت اتباع نظام المدينة-الدولة الذي ساد في العصر البرونزي المتوسط (نحو ٢٠٠٠ - ١٥٥٠ ق.م.). لكنه اختلف في العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٢٠٠-١٥٥٠ ق.م.) في أن الفرعون المصري هو الذي كان يعين حكام المدن، إضافة إلى وجود مندوب سام مصري في المدن الكبرى. كذلك فقد تركزت دويلات المدن في فلسطين في المناطق الساحلية والسهلية، بينما قُلت في المرتفعات الجبلية. ونتيجة لوعورة المناطق الجبلية صُعبَ على الفراعنة السيطرة عليها عسكرياً؛ ما دفع إلى استقرار مجموعة من القبائل البدوية فيها بسبب توافر المراعي، وهذا الأمر أدى إلى أن تطلق كل قبيلة اسمها على المنطقة التي استوطنت فيها، وهذا ما يتماشى مع النص التوراتي، خاصة في أسفار القضاة ويشوع وصاموئيل. ويؤكد «ألت» (Alt 1925: 205 - 215) أن هذه القبائل استمرت في الاستقرار في المناطق نفسها خلال العصر الحديدي (نحو ١٢٠٠ - ٥٨٦ ق.م.)، لكن وبعد أن استقر بها المقام في بعض مناطق المرتفعات الجبلية أخذت تهاجم المراكز الحضارية الكنعانية، مثل تل وقاص في سهل الحولة (Aharoni 1979: 191-192).

الأعوام ١٩٦٤ و ١٩٧٠م، وعرفها وليم أولبرايت (William F. Albright) على أنها موقع (عاي Ai) التوراتي؛ إن الموقع ازدهر كمدينة في الفترة التي تعرف باسم العصر البرونزي الثاني (بداية الألف الثالثة ق.م.)، هُجر بعدها الموقع ولم يُستوطن إلا في بداية العصر الحديدي (Callaway 1993). إذاً، أين مدينة العصر البرونزي المتأخر التي دمّرها الإسرائيليون؟ على أية حال، وحتى يخرج أولبرايت من هذه الورطة، فإنه يشير في بحث آخر إلى وجود جماعات من الإسرائيليين في كنعان حتى قبل دخول الإسرائيليين (Albright 1940: 276-278). وأما اللافت في فشل نظرية الاحتلال بالقوة للمدن الكنعانية في فلسطين يتمثل في أنه لم يعثر في موقع تل السلطان/أريحا على أية بقايا للمدينة التي هاجمها يشوع ودمّرها. وهنا يقترح أولبرايت أن طبقة دمار المدينة على يد يشوع اختفت لأسباب بيئية أدت إلى تجريفها، فلم يعثر عليها (Albright 1963: 27-28).

تبع أولبرايت في نظريته التي تقول إن الإسرائيليين دخلوا كنعان عنوة وبالقوة، لنتوءم والقصة التوراتية، مجموعة من الباحثين وعلى رأسهم جورج ايرنست رايت (Wright 1940)، ويغال يادين (Yadin 1982: 17-18)؛ إذ يؤكد رايت على صحة الحدث التوراتي، ويرتب توالي انهيار المدن الكنعانية وسقوطها بيد الإسرائيليين، زمنياً، على النحو الآتي: تل الدوير في سنة ١٢٣٠ ق.م.، تل المتسلم في سنة ١١٠٠ ق.م. ومن بعدها بيسان، القدس، وتل الجزر حتى تنصيب داود ملكاً على إسرائيل واحتلاله باقي الأراضي الفلسطينية (Wright 1940: 26). كما يقترح رايت الذي نقّب في تل بلاطه (شكيم)، أن الموقع لم يتعرض للهجوم لأنه كان مسكوناً عند دخول الإسرائيليين من قبل نسل يعقوب الذين لم يغادروا إلى مصر (Wright 1960: 446-471). وينكر عدد من الباحثين احتلال كنعان بالقوة من قبل القبائل الإسرائيلية، ومنهم أيضاً بعض الباحثين الإسرائيليين، مثل، يوحنا أهاروني (Y. Aharoni) الذي تركّز أبحاثه على منطقة النقب وذكر أنها كانت خالية من التحصينات العسكرية في زمن دخول الإسرائيليين

علم الاجتماع، فقد درس مندنهول الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتغيرات المجتمعية التي حصلت في الفترة بين نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي (نحو ١٣٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.). وانتقد مندنهول نظريتي الاحتلال بالقوة والتسرب السلمي لربطهما بين التاريخ القديم والحديث (Mendenhall 1962: 66). وقال بعدم وجود فرق كبير بين النظريتين لأنهما تقولان إن بني إسرائيل دخلوا إلى أرض كنعان من خارجها، وأن الطابع البدوي القبلي هو الذي ساد بين القبائل الإسرائيلية، وأن الرابط بين هذه القبائل أنها تنحدر من عرق واحد، سلالة إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب، ونسبها هذا جعلها مختلفة عن السكان الكنعانيين، سكان البلاد الأصليين. وعلماً أنه لا يمانع بأن تماسك القبائل كان على أساس عرقي وأنها جاءت من خارج أرض كنعان، إلا إنه يرى أنها لم تكن بدوية بسبب طبيعة الحياة البدوية التي تعتمد التثقل؛ ومن هنا، تضعف الرابطة الاجتماعية بينها.

وحول ظهور الإسرائيليين إلى الساحة بأرض كنعان ينفي حدوث أي هجوم شامل على أرض كنعان من قبل الإسرائيليين أدى إلى طرد أصحاب الأرض، وحدث تغيير ديموغرافي كلي فيها، ويجادل بأن ما حدث لم يخرج عن كونه ثورة للفلاحين في المدن ضد أوضاعهم المعيشية خلال نهاية العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٢٠٠ ق. م.). ومن المعلوم أن المدن الكنعانية كانت خلال هذه المرحلة في صراع دائم فيما بينها، بشهادة رسائل تل العمارنة؛ ما أدى إلى تراجع الطبقة الاجتماعية الدنيا. أدت هذه الصراعات إلى تدهور الأحوال المعيشية، فتوحدت من بينها مجموعة من القبائل، لكن ليس على أساس عرقي، بل ربط بينها دين واحد جديد، هو عبادة الإله «يهوه». أدى هذا بالتالي لظهور القبائل الإسرائيلية الراضة لما كان سائداً من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية، لأول مرة في التاريخ (Mendenhall 1962: 73-78). دفع هذا الأمر عدداً آخر من الناس للدخول في الدين الجديد، فزادت مع الزمن قوتهم؛ ما دفعهم لمهاجمة النظام السائد (دولة

لقيت نظرية التسرب السلمي ترحيباً من عدد من الباحثين من أمثال تيوفيل مييك (Theophil Meek) الذي جادل بأن كثيراً من المدن الكنعانية لم تدمر خلال دخول الإسرائيليين بقيادة يشوع، وأكد على عدم الأخذ بحرفية النص التوراتي (Meek 1936: 17-19). ووافق مارتن نوت (Martin Noth) هذا الرأي واقترح أن التسرب السلمي تم بقيادة أكبر القبائل اليهودية التي كانت آنذاك في شرقي نهر الأردن، ثم دخلت وسكنت تدريجياً في المرتفعات الجبلية الواقعة غربي النهر (Noth 1948: 51, 71-74; 1958: 53-68). وأيد هذه الأفكار والمقترحات مانفريد فايبيرت (Manfred Weippert) الذي قال كذلك إن القبائل اليهودية توحدت بعد دخولها أرض كنعان والاستقرار فيه؛ لكنه لم ينكر أنها هاجمت المدن الكنعانية رغبة منها في التوسّع فخرست بعضها وربحت بعضها الآخر (Weippert 1971: 5-6). وفي نقاشه هذه المسألة، دحض فايبيرت -اعتماداً على نتائج الحفريات والمسوحات الأثرية الحديثة- ما جاء في نظرية نلسون غلوك من أن المنطقة الواقعة للجنوب من مدينة مادبا في الأردن كانت خالية من السكان المستقرين خلال الفترة بين ١٩٠٠ - ١٢٠٠ ق. م. وأنها لم تُعمّر إلا مع بداية العصر الحديدي، من قبل الإسرائيليين (Weippert 1982: 153-158).

ملخص قول نظرية التسرب السلمي، أن القبائل الإسرائيلية دخلت إلى المناطق الوعرة والخالية من السكان أولاً، وتعايشت مع الكنعانيين بشكل سلمي؛ لكن، ولما استقر لها الأمر وقويت شوكتها أخذت تهاجم المدن الكنعانية في المناطق السهلية والساحلية. لكن الحال لم يستقم لها مع المدن الكنعانية الساحلية، فلم تستطع السيطرة عليها؛ لذا، بقيت محصورة في مناطق المرتفعات الجبلية.

٣. نظرية الثورة الاجتماعية

صاحب هذه النظرية هو جورج مندنهول (George Mendenhall) الذي عمل استاذاً في جامعة ميتشغان آن آربر (Michigan Ann Arber). وتقوم هذه النظرية على

214). وعدّ غوتوالد في بادئ الأمر أنه كان للبدو الرعاة (هم الذين يمارسون الزراعة إضافة لتربية المواشي ورعيها) دورٌ كبيرٌ وأساسي في هذه الثورة الاجتماعية، لكنه عاد وأضاف إليهم الفلاحين الكنعانيين الذين اضطروا ونتيجة لتزايد عددهم إلى التوسع الجغرافي؛ ما أدى إلى تداخل علاقاتهم مع المجتمعات الرعوية، وشجعهم على تشكيل نسيج اجتماعي متساوٍ يطالب بالحكم الذاتي (Gottwald 1983: 6-7; 1985: 38).

أما «نيلز ليمكه» (Niels Lemche)، فاعتمد في مصادره لدراسة الثورة الاجتماعية أولاً على ما ورد في النصوص المكتوبة، وما ورد في العهد القديم، وحدثت الهجرات البشرية مع بداية العصر الحديدي، وخرج بنتيجة مفادها أن أخبار دخول قبائل شبه بدوية إلى أرض كنعان ضعيفة جداً في نصوص العهد القديم. وأضاف أنه لا توجد هناك أي دلائل أثرية تدل على دخول عدد كبير من الناس إلى أرض كنعان من مناطق أخرى مع بداية العصر الحديدي (أي بداية القرن الثاني عشر ق.م.)، كما أن المعلومات الواردة في العهد القديم حول هذا الموضوع قد كتبت في فترة متأخرة جداً عن حصول الخروج، وكان هذا في منتصف القرن الأول ق.م. (Lemche 1985: 411-412). ويعدّ لمكه أن ما ورد من معلومات في العهد القديم ما هو إلا أساطير يجب عدم الاعتماد عليها، أو الرجوع إليها، بل يجب أن تكون الآثار هي المصدر الأساس عند كتابة تاريخ الإسرائيليين.

يعزو لمكه سبب انهيار المدن الكنعانية مع نهاية العصر البرونزي المتأخر (نحو 1200 ق.م.) لعدة عوامل، هي: الحروب الخارجية والداخلية، وانتشار الأمراض، والتحويلات المناخية، والمشاكل الاجتماعية، وأخيراً استهلاك الموارد الطبيعية الكنعانية من قبل الفراعنة المصريين (Lemche 1985: 422-423). ويرى الباحث أن أهم عامل بين هذه العوامل هو وقوع بلاد كنعان تحت السيطرة المصرية طيلة العصر البرونزي المتأخر (نحو 1500-1200 ق.م.)، ونشوب الصراعات الداخلية بين الوحدات السياسية الصغيرة (كنتونات)؛

المدينة) فهاجموا بعض المدن الكنعانية للتحرر من الظلم الذي حاق بهم (Mendenhall 1962: 79, 83-84).

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان الرابط الذي جمع هذه القبائل هو الدين وليس العرق؟ فكيف تتحدث المصادر التاريخية، سواء الرافدية أم الفرعونية، عن وجود عرقية جمعت هذه القبائل؟

يجيب مندنهول عن هذا التساؤل بالقول إنه بعد التحرر من النظام السياسي الذي كان قائماً، ووحدة المصلحة المشتركة التي جمعت هذه القبائل، بدأت تظهر للوجود مع مرور الوقت العرقية التي ولدت بين أفرادها الشعور بالتميز، وبالتالي العرقية. لكن مندنهول يضيف أن الإسرائيليين أتباع الإله «يهوه» تشكلوا من عائلات متعددة ومختلفة، بل إن لهجاتهم مختلفة، لكن الذي جمعهم هو الإله الواحد ورفض النظام السياسي القائم على أن كل مدينة تحكم نفسها بنفسها (Mendenhall 1973: 27-29). ويضيف بأن نشوء دولة إسرائيل الموحدة كان نتاجاً لما حدث في بلدان الشرق الأدنى القديم من انهيار للامبراطوريات في وادي النيل، والرافدين، والأناضول (Mendenhall 1976: 154). إن أصل القبائل الإثنتي عشرة هو كنعاني؛ بدليل أن لغتهم تنحدر من أصل سام، وهو أصل اللغة الكنعانية، واتباعهم النمط الاقتصادي ذاته الذي ساد أرض كنعان.

لقيت نظرية الثورة والتغيير الاجتماعي قبولاً من قبل عدد من الباحثين، من أمثال، نورمان غوتوالد (Normann Gottwald) ونيلز ليمكه (Niels Lemche)، إذ عدّ الأول أن الإسرائيليين، الذين جمعتهم ديانة واحدة، «عبادة الإله يهوه» قد شكّلوا تجمعاً قبلياً كبيراً في الوقت الذي حصل فيه تدمير الامبراطوريات الكبرى في بلاد الشرق الأدنى القديم. لكن يضاف إلى هذا التجمع انضمام جماعات صغيرة من طبقة «العبيد»، خرجت من مصر إلى الأراضي الكنعانية في الفترة السابقة للثورة الاجتماعية، وهي التي شجعت الطبقة الدنيا في المجتمع الكنعاني على الثورة (Gottwald 1979: 210-).

البشرية، ولكن الباحث يرى أنه لا يجوز أن تستخدم المادة الأثرية المكتشفة لتحديد الأجناس أو الأعراق، خاصة في منطقة بلاد الشام، التي لم يسكنها على مدى العصور جنس بشري واحد، بل هي على الدوام خليط من الأجناس والأعراق البشرية. ويرى ديفر أن الإسرائيليين الأوائل هم من الكنعانيين الذين استوطنوا المناطق الهامشية في المرتفعات الجبلية، وأن الثورة التي قام بها هؤلاء (اللاجئون، العايبرو، الفلاحون، الرعاة) على مجتمع المدينة الكنعاني أساسها توافق وتكامل اقتصادي واجتماعي بين أفرادها من الفلاحين. لكن نظرية استخدام الفلاحين كعنصر أساس في هذا التغيير الاجتماعي وظهور «دولة الأمة» عوضاً عن النظام السياسي السابق «المدينة-الدولة»، وجد من يعارضه، مثل الإسرائيلي إسرائيل فنكلشتاين (Israel Finkelstein) الذي يرى أن العنصر المجتمعي الأساسي في حصول هذا التغيير هو المجتمعات الرعوية.

٤. نظرية المجتمعات الرعوية في نشوء إسرائيل الفلسطينية

أجرى الإسرائيلي «إسرائيل فنكلشتاين» بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية في عام ١٩٦٧ عدداً من المسوحات والحفريات الأثرية فيها، وأهمها المسح الأثري في منطقة مدينة رام الله. واعتمد في منهجه البحثي في دراساته الميدانية منهجاً مختلفاً عن منهج الباحثين التوراتيين التقليديين؛ فإذا كان مؤسس المدرسة التوراتية «وليم أولبرايت» قد اعتمد الربط بين دراسة الفخار والطبقات في المواقع الأثرية منهجاً لاستخلاص تاريخها، وماهيتها؛ فإن فنكلشتاين اعتمد التعرف إلى أنماط السكنى أساساً في اشتقاق هذه المعلومات. ووضح هذا الأمر عندما نشر نتائج أعماله الميدانية عام ١٩٨٨م بعنوان: (The Archaeology of the Israelite Settlements).

اعتمد «فنكلشتاين» في تفسير ظهور دولة إسرائيل الفلسطينية على وجود المجتمعات الرعوية التي عاشت في مناطق التخوم الفاصلة بين الصحاري والمناطق

ما أفسح المجال لظهور عناصر محلية منافسة لمجتمع المدينة بالتدخل والانقراض على السلطة. ويعتقد لمكه أن هذه العناصر كانت هي «العايبرو» التي سكنت في المناطق الحدودية/الهامشية بين المدن الكنعانية أي في المرتفعات الجبلية خلال القرن الرابع عشر ق. م؛ ومع مرور الزمان، استطاعت هذه المجموعات إنشاء مستوطنات كبيرة لها مستغلة الموارد الطبيعية الموجودة في المنطقة التي تسكنها. وحتى تستطيع هذه المستوطنات التوسّع كان لا بد لها من إحراق الغابات، واستصلاح الأراضي الناتجة بعدها ببناء (مصاطب) حجرية (Terraces) لمنع انجراف التربة، كما بنوا آباراً لجمع مياه الأمطار. ومع نهاية القرن الثالث عشر ق. م. انفصل عن المستوطنات الكبيرة مستوطنات أصغر مساحة في المناطق المجاورة لها.

خلاصة رأي الباحث «لمكه»، أن الإسرائيليين موجودون في البلاد أصلاً، ولم يأتوا من خارجها، وبرأيه أن ظهور دولة إسرائيل في كنعان هو معاصر لظهور الدول الإقليمية الأخرى، مثل، العمونيين، والمؤابيين والأدوميين، لكنها وجدت في ظروف وأسباب مختلفة، أهمها، الثورة الاجتماعية.

ومن الباحثين الذين أدلوا أيضاً بدلوهم حول هذا الأمر، وليم ديفر (William Dever) الذي أكد على ضرورة:

أولاً: استخدام الآثار للتعرف إلى الأعراق والأجناس من خلال استمرارية أو انقطاع استخدام الأدوات والأواني والعمارة.

ثانياً: قراءة الكتابات القديمة التي تدل على اشتراك مجموعة بشرية محددة بقيم وعادات وتقاليدها ولغة تميزها عن غيرها من المجموعات المجاورة لها.

وبناء على هذه المعطيات، يمكن التفريق بين المجتمعات الكنعانية والإسرائيلية في أرض كنعان (Dever 1993: 23-24; 1995: 200-213)، إذ برأيه أن المادة الأثرية تبين الحقيقة الواقعة، بينما تعكس الكتابات الأيدولوجية الفكرية (الديانة) لهذه المجموعات



الخريطة ٣: جنوبي بلاد الشام السياسية في العصر الحديدي الثاني (نحو 1000-586 ق.م.). (حسب النص التوراتي).

للمصادر التاريخية المكتوبة، ودراسة المادة الأثرية المكتشفة، وأخيراً المقدر على التمييز بين أنماط الاستيطان لمجتمع الرعاة عنه للمجتمعات المتحضرة. أما بخصوص المصادر المكتوبة، فمن المعروف أن المصدر المكتوب الوحيد لدراسة المجتمع الإسرائيلي

الصالحة للزراعة. وفسر هذا بالقول إن القبائل الرعوية كانت على تماس متواصل مع مجتمع المدينة ومكملة له من النواحي الاقتصادية والاجتماعية، فاصطبغت هذه العلاقة بطابع سلمي وليس عسكرياً. وللتعرف إلى كيفية هذا التعايش كان لا بد لفنكلشتاين من العودة

فكرة أن يكون السبب في ذلك مرجعه إلى احتلال الدولة الحديثة الفرعونية للمنطقة، بل اقترح التغير في النمط المعيشي، وبخاصة التحول إلى نمط البداوة هو السبب في ذلك؛ إذ إن الناس ونتيجة للاستهلاك المتواصل للموارد الطبيعية، وانتشار الأمراض والأوبئة، والاحتلال العسكري الفرعوني الذي فرض الضرائب الباهظة على الناس، وانعدام الأمان في تلك الأيام هي الأسباب التي دفعتهم إلى هجر المراكز الحضارية والتحول إلى البداوة. وعزز قوله هذا باكتشاف آثار (معابد ومقابر) في مناطق منعزلة من جنوبي بلاد الشام، لكنها بنيت قريبة أو بعيدة عن المراكز الحضارية، وافترض أنها خصت مجتمعات غير مستقرة أو بدوية الطابع، كانت على تواصل مع أهل المدن والقرى، وضرب أمثلة مما اكتشف في تل الدوير في منطقة الخليل ومنطقة نابلس. وقدم فنكلشتاين مثالا على هذه المجتمعات من قبائل «الشاسو» البدوية التي سكنت جنوبي بلاد الشام وسيناء خلال نهاية العصر البرونزي المتأخر (Finkelstein 1988: 341-345).

ويعتقد فنكلشتاين أن الوضع الأمني في كنعان قد أصبح أكثر أماناً، وأن السيطرة الفرعونية قد ضعفت على كنعان، وأصبحت سبل الحياة متوافرة بشكل أفضل خلال نهاية القرن الثالث عشر ق. م.؛ ما فسح المجال أمام المجموعات البشرية للعودة والاستقرار في المراكز الحضارية (Finkelstein 1988: 345-346). ويوافق الباحث فنكلشتاين على رأيه بتراجع السلطة المصرية على كنعان بعد انتهاء الأسرة التاسعة عشرة؛ وهذا ما فسح المجال لجميع الناس في تلك المنطقة، سواء البدو أو الحضري، لالتقاط الأنفاس واستغلال الفراغ السياسي الذي حصل. كذلك يرى فنكلشتاين أن تغيراً مناخياً قد حصل مع نهاية القرن الثالث عشر ق. م. أدى إلى عدم توافر المراعي لرعي الحيوانات؛ ما أجبر المجتمعات الرعوية على الزراعة، ومع مرور الزمان تحولوا إلى مزارعين مستقرين.

خلاصة رأي فنكلشتاين، أن الإسرائيليين كانوا في الأساس من جذور كنعانية، ولم يستبعد دخول

خلال الفترة بين ١٢٠٠ و ١٠٠٠ ق. م. هو كتاب العهد القديم؛ إذ غابت المصادر الفرعونية والرافدية والمحلية عن ذكر كنعان والأحداث التاريخية التي جرت فيها خلال هذه الفترة. ويرأيه أن المعلومات الواردة في كتاب العهد القديم لا تفيد كثيراً من هذه الناحية؛ لأنها كتبت في فترة متأخرة عن فترة موسى (عليه السلام)، أي الزمان الذي حدثت فيه الأحداث الفعلية لبني إسرائيل؛ لذا، لا بد من الاعتماد على دراسة الآثار وطبيعة الاستقرار والسكنى في المواقع الأثرية (Finkelstein 1988: 336-337). وأفاد فنكلشتاين أن الآثار المؤرخة للعصر الحديدي الأول لا تختلف كثيراً في طبيعتها وتقنياتها عن آثار نهاية العصر البرونزي المتأخر، على الرغم من دخول مجموعات بشرية جديدة لأرض كنعان، مثل، قبائل شعوب البحر. ويرى أن الاختلافات في أشكال وتقنيات الأدوات والأواني الأثرية تعتمد كثيراً على العوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، في أكثر الحالات. لكنه يذكر أن المادة الأثرية المكتشفة في المراكز الحضارية الكنعانية تختلف في ماهيتها وأشكالها عن تلك التي تخص الإسرائيليين الرعاة (Finkelstein 1988: 338).

وحتى يصل «فنكلشتاين» إلى مبعثه، في فصل مناطق الإسرائيليين الرعاة عن تلك الكنعانية، كان لا بد له من إعادة هذه المستوطنات إلى فترات زمنية، أي تأريخ المواقع الأثرية في المناطق التي، برأيه، سكنتها تلك المجتمعات الرعوية. وليستقيم له الأمر بدأ بدراسة المستقرات البشرية بالمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط (نحو ١٨٠٠ - ١٦٥٠ ق. م.)، وهي الفترة التي ظهر فيها سيدنا إبراهيم (عليه السلام) حسب رأي التوراة، مروراً بالعصر البرونزي المتأخر، وتدرج بالحديث حول طبيعة الاستيطان والمعيشة حتى نهاية العصر الحديدي الأول (نحو ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م.) (Finkelstein 1988: 339-340).

استنتج فنكلشتاين أن عدد المستقرات البشرية (المراكز الحضارية) الكنعانية أخذ بالتراجع منذ الفترات الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط، ورفض

هنا تجدهم الآن يبحثون في هذه المناطق عن آثار لهذه المجتمعات. لكنهم، وحسب رأي الباحث، وعلى الرغم من زعمهم أنهم لم يعودوا تابعين للمدرسة التوراتية التقليدية التي أسسها أولبرايت، إلا أنهم لم يستطيعوا الخروج من تحت عباءة التوراة، ولذلك نجدهم عادوا الآن إلى التقيب في تل المتسلم، وتل وقاص، وبيسان.

5. نظرية المفاهيم والأفكار المتعددة

إضافة لهذه النظريات آفة الذكر، خرجت الأمريكية آن كلبريو بنظرية جمعت جميع ما سبق من أفكار ومفاهيم، وأطلقت عليها اسم (The Mixed Multitude Theory)؛ وشملت هذه النظرية القصص التوراتية من حيث الخروج من مصر والدخول إلى أرض كنعان، والاجتماع على إله واحد وفكر واحد، وتشابه في المادة الأثرية والإثنولوجيا، وطبيعة الحياة الرعوية التي تقوم على المفهوم القبلي بوجود مجموعات بشرية ترتبط مع بعضها بعضاً عن طريق القرابة والنسب لكنها تسمح لعناصر بشرية أخرى قليلة العدد بالتواجد بينها والانتساب إليها (Killebrew 2005).

وجد الباحث بعد دراسة هذه النظريات مجتمعة أنها لا تبعد كثيراً عن بعضها بعضاً، فهي تختلف فقط فيما إذا كان الإسرائيليون الأوائل من أبناء المنطقة أم لا؟ لكنها تتفق جميعها على أن طبيعة هؤلاء القوم هي البداوة ورعي الماشية، ويدعم هذا الأمر ما ورد في الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم (سورة القصص). إذ تذكر التوراة أن سيدنا موسى عليه السلام هرب من مصر إلى منطقة «مدين» الواقعة في جنوبي بلاد الشام وتمتد إلى شمال-غربي الجزيرة العربية، خوفاً على نفسه من الفرعون.

وبعد أن عاد موسى إلى مصر من «مدين» أخذ معه زوجته إلى هناك، لكن وبعد أن صعب عليه وأهله العيش ويعتقد أنه خرج منها ومعه أقاربه مع نهاية القرن الثالث عشر ق.م. (أي نحو 1200 ق.م.) (Isserlin 2001: 50-53) المئات من الناس على الرغم من الرقم الذي ذكرته التوراة (600 ألف شخص):

مجموعة أخرى جاءت من مصر ودخلت من جنوب كنعان وانضمت إلى الأولى. وأن هؤلاء كانوا يعيشون في المناطق المناسبة للرعي على حدود المراكز الحضارية، ولكنهم كانوا على تواصل مع بعضهم بعضاً، فأقاموا معها علاقات اقتصادية. لكن هؤلاء الرعاة أخذوا مع نهاية العصر البرونزي في الاستقرار، واحتاجوا لما يقارب من المائتي عام ليؤسسوا ما عرف باسم «دولة إسرائيل». وبرأيه أنهم توزعوا في بادئ الأمر في مناطق نابلس ورام الله، والجليل الأسفل، والنقب، وانتشروا في بقية مناطق فلسطين في مراحل زمنية متأخرة. ونتيجة لزيادة السكان في مستقراتهم الأولى، وحاجتهم لمناطق زراعية أوسع، اضطروا إلى الصدام العسكري مع المدن والقرى الكنعانية؛ ونتيجة لهذه الصراعات، والقتال مع شعوب البحر الذين استقروا في الجزء الجنوبي من السهل الساحلي الفلسطيني، اضطرت القبائل الإسرائيلية المتباعدة إلى الوحدة، وتأسيس الدولة الموحدة في القرن العاشر ق.م. (Finkelstein 1988: 350-351). ولقد أكد فنكلشتاين في سنوات لاحقة نشره نظريته في عام 1988 ميلادية مع إضافة بعض الشروحات المستفيضة، أو التعديلات البسيطة، مثل، أنه ومع مرور الزمان يصعب التفريق بين المستقرات الحضارية والأخرى التي تخص المجتمعات الرعوية (Finkelstein 1992; 1994; 1995; 1996; 1997; 1998; 2007a; 2007b).

وينبغي التنويه والإشارة هنا إلى أن المدرسة التقليدية التوراتية برئاسة وليم فوكسويل أولبرايت كانت تبحث عن مواقع وآثار ورد ذكرها في التوراة لمجتمعات خرجت من مصر ودخلت إلى فلسطين عنوة. ومع نكبة فلسطين وتأسيس دولة الكيان الصهيوني في عام 1948 تابع الآثاريون المتصهينون من أمثال يغال يادين السير على المنهج نفسه، لكن مع ظهور جيل جديد من الآثاريين الصهاينة، مثل إسرائيل فنكلشتاين (Israel Finkelstein) وأشر زلبرمان (Asher Silberman)، الذين أكدوا أن الإسرائيليين هم من الرعاة الكنعانيين سكنوا المناطق المجاورة للمراكز الحضارية الكنعانية، ومن

جداً (نحو سبعين عاماً).

يعتقد الباحث أن العامل الديني، وعدم وجود وطن قومي ثابت على مدى الدهور، وضعف دويلات المدن الكنعانية في فلسطين هو الذي أدى إلى سيطرة هذه القبائل العربية - اليهودية على أرض كنعان.

الخاتمة

تشكل أرض كنعان، وهي جزء من البلاد العربية في شرقي آسيا، حلقة وصل بين مجموعة من الأمم التي تسكن آسيا وإفريقيا وأوروبا؛ وعليه، فهي مدخل ومخرج لمجموعة من البشر عبر العصور، من القديم وحتى الوقت الحاضر؛ وانطلاقاً من ذلك، فقد أثر سكانها وتأثروا بعدد من الثقافات والأديان عبر العصور، علماً أن أرض كنعان هي المكان الذي آوى الرسالات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلامية. كذلك تعرضت هذه البلاد خلال العصور القديمة للاحتلال الفرعوني والرافدي والفارسي واليوناني والرومي وما تبعهم، وهي حتى الآن تعاني. لم تحظ هذه البلاد خلال العصور السابقة للإسلام بأي نوع من الوحدة السياسية، ولم تكن لها عاصمة مركزية واحدة، فكل مدينة شكلت دولة لنفسها، وحاربت ما حولها من مدن؛ وهذا ما جعلها لقمة سائغة على الدوام. لكن وعلى الرغم من ذلك، بقيت منارة فكر وإشعاع ديني؛ ومن هنا، كان للدين دوراً كبيراً في حياة الناس، ومنهجهم الحياتي. فإن الدين موسى الموحد كان السبب الأساس الذي جمع القبائل التي اتبعته للبحث عن وطن لها.

إنَّ مَنْ آمن برسالة موسى عليه السلام كانت مجموعة من القبائل البدوية التي سكنت جنوبي بلاد الشام وسيناء، وهؤلاء هم من أطلقت عليهم المصادر المصرية اسم «شاسو»، وسكان «مدين». ولما كانت المجتمعات البدوية متنقلة بطبيعتها ولا تترك آثاراً معمارية خلفها؛ إلا إنه قد عثر على ما يعرف باسم الفخار المديني في مواقع العصر الحديدي في النقب في فلسطين، وربما في فينان في الأردن، وفي تيماء في شمال غربي المملكة العربية السعودية (Kafafi

٣٥) وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا

٣٦) وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين

٣٧) فارتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سكوت، نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد

٣٨) وصعد معهم ليف كثير أيضاً مع غنم وبقر، مواش وافرة جدا»

(الخروج ١٢: ٣٥-٣٨)

عاد موسى إلى «مدين» ومعه أقاربه، لكنه رجع بدين جديد موحد، أخذ ينشر تعاليمه بين القبائل البدوية، ومنهم قبيلة «الشاسو» التي ذكرتها المصادر الفرعونية، والتي كانت تسكن جنوبي بلاد الشام وشمال غربي الجزيرة العربية. وكانت هذه الأقوام بغض الطرف عن جنسها أو نسبها تشكل حلقة وصل بين مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية، وعلى تواصل من خلال التجارة وغيرها. لكن، هذه القبائل اختلفت بدينها عن محيطها؛ فهي تتبع ديناً موحداً، آمنت به اثنتا عشرة قبيلة من القبائل البدوية الموجودة في هذه المنطقة المتوسطة؛ وتعايشت مع محيطها في الفترة السابقة لتحطيم الامبراطوريات الفرعونية والحثية والكاشية في نحو ١٢٠٠ ق. م.؛ وقد أدى هذا التحول السياسي، وتراجع الاحتلال الفرعوني والحثي عن بلاد الشام، بشكل خاص، إلى ظهور دويلات وثنية متعددة مستقلة، منها: الدول الآرامية، والعمونية، والمؤابية، والأدومية، وشعوب البحر. أدى هذا الأمر بأن تشعر القبائل البدوية التي آمنت بدين موسى الموحد أن تشعر أنها في خطر من ظهور هذه الوحدات السياسية، فدعت إلى الوحدة فيما بينها، وبحثت لها عن مستقر آمن؛ ونظراً لأنها لا تستطيع مقابلة الدول القوية في المنطقة، قررت الذهاب إلى المنطقة الأضعف عسكرياً، وكانت كنعان بمدنها المتحاربة مع بعضها بعضاً؛ فتسللت إليها سلباً، حتى استقر لها الأمر. وبعد أن قويت شوكتها سيطرت على مساحة صغيرة من أرض كنعان، ولمدة قصيرة

وحتى الدولة الإسرائيلية الموحدة التي ظهرت في الفترة بين نحو ١٠٠٠ - ٩٢٣ ق.م.، ودولتي «السامرة» و«يهودا» هي للعرب وليس للصهاينة، وهذه الدويلات قامت فقط على أجزاء من فلسطين الجغرافية، وليس على كامل ترابها. ويعتقد الباحث أن على العرب الآن أن لا يخسروا موسى وداود وسليمان، فهم أبناؤهم، ولا الديانة اليهودية التي قامت على أرضهم، فهم أحق بها من الصهاينة الذين جاءوا من روسيا وأوروبا وأمريكا. لقد اتبع صهاينة هذه الأيام مناهج متعددة لتفسير الوعد الإلهي، ولتحقيق مآربهم، لكن العرب، وللأسف، اكتفوا بالرفض، والشجب، ولم يسعوا إلى متابعة ما يكتب حول هذه القضية. إلى متى سيبقى العرب يرددون كالبغاوات ما يقوله الآخرون. لماذا لا يكونون مبدعين؟ وليس من المفهوم لماذا يفرح الناس عندما يقولون دون أساس أن هناك تراثاً حضارياً كنعانياً وآخر إسرائيلياً، ويصرون على أن الأول أقدم من الثاني؛ لذا، لا حق للصهاينة في فلسطين الحالية. وبالتأكيد لا يوجد تراث كنعاني ولا إسرائيلي في فلسطين، بل ما هو موجود هو تراث فلسطيني - عربي، له تاريخ متصل منذ أقدم العصور وحتى الحاضر، نشأ فوق الأرض الفلسطينية.

(2014). وهذا يدل على التواصل الذي كان موجوداً بين الناس في هذه المناطق خلال تلك المرحلة. إن الاحتلال الأجنبي، وهذا ما جرى لبلاد كنعان من احتلال فرعوني خلال العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م.) يؤثر على توزيع الناس وطبيعة حياتهم. يُضاف إلى ذلك تغير الخريطة السياسية نحو عام ١٢٠٠ ق.م.؛ وبخاصة في نهاية الامبراطورية الفرعونية، فقد فُسح المجال أمام ظهور وحدات سياسية جديدة جمعت بعضها صلة النسب والقربة، مثل: الآراميين، والعمونيين، والمؤابيين، والأدوميين؛ وجمع بعضها الآخر، وهم الإسرائيليون، الدين. لكن ومع تقلب الأحوال فقد تحوّل المجتمع وتبدّل حسب الزمان والمكان، فتأثر أولاً بالعناصر الثقافية والدينية الكنعانية، وبعد السبي البابلي بالرافدية.

حملت الحركة الصهيونية العالمية منذ إنشائها التوراة بيد، معلنة حقها في أرض كنعان، وقالت هذا وعد إلهي على العالم أن يساعدها في تنفيذه، لكن ماذا فعل العرب بالمقابل. لقد أصبح يتشنجون عندما يسمعون كلمة «يهود»، علماً أن أتباع موسى وداود وسليمان هم عرب ومن أهل هذه الأرض. أليس من الأولى للعرب أن يقولوا إن تراث اليهود الأوائل هو جزء من تراثهم،

أ.د. زيدان كفاقي؛ رئيس جامعة اليرموك - إربد - المملكة الأردنية الهاشمية.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس

إبراهيم، معاوية ٢٠١٠، دراسات في آثار فلسطين، جامعة فيلادلفيا، عمان، الأردن.

بغدادى، رشاد محمود ١٩٩٦، حول الأرض المقدسة عند اليهود، دار المعرفة، الاسكندرية، مصر.

الغول، عمر ٢٠١٦، «مصطلحا «كنعان» و«الكنعانيين» في الميزان التاريخي»، الحنونة ٧: ١١-١٦.

ثانياً: المراجع غير العربية

كصافي، زيدان ٢٠١١، بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الاسكندر المقدوني، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

نجاجرة، غسان سعيد ٢٠١١. طبيعة وأنماط الاستيطان في المرتفعات الجبلية الفلسطينية في العصر الحديدي الأول ١٢٠٠ - ١٠٠٠ قبل الميلاد. رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الآثار، جامعة اليرموك، اربد، الأردن.

Aharoni, Yonan 1976. "Nothing Early and Nothing Late: Re-Writing Israel's Conquest", **Biblical Archaeologist** 39/2: 55-76.

Aharoni, Yonan 1979. **The Land of the Bible: A Historical Geography, Revised and Enlarged**, Translated by A. F. Rainey, Philadelphia: Westminster.

Ahlström, G. W. 1993. "The History of Ancient Palestine from the Palaeolithic Period to Alexander's Conquest", **Journal for the Study of the Old Testament, Supplement Series** 146, Sheffield: Sheffield Academic.

Albright, W. F. 1935. "Archaeology and the Date of the Hebrew Conquest of Palestine", **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 58: 10-18.

Albright, William Foxwell 1939. "The Israelite Conquest of Canaan in the Light of Archaeology", **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 74: 11-23.

Albright, William Foxwell 1963. **The Biblical Period from Abraham to Ezra**, New York: Harper and Row.

Albright, William Foxwell 1971. **The Archaeology of Palestine**, Gloucester: Peter Smith.

Astour, M.C. 1965. "The Origins of the Terms "Canaan", "Phoenician" and "Purple", **Journal of the Near Eastern Studies** 24: 346-350.

Callaway, Joseph 1993. "Ai". In Ephraim Stern (ed.), **The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land**, Pp. 39-45, Simon and Schuster.

Dever, William 1993. "Cultural Continuity, Ethnicity, in the Archaeological Record and the Question of the Israelite Origins", **Eretz Israel** 24: 22-23.

Dever, William 1995. "Ceramics, Ethnicity and the Question of the Israel's Origin", **Biblical Archaeologists** 58: 200-213.

Dever, William 1998. "Social Structure in the Early Bronze Age IV Period in Palestine. In: Thomas E. Levy (ed.), **The Archaeology of Society in the Holy Land**, Pp. 282-296, London and Washington: Leicester University Press.

Dothan, T. and Dothan, M. 1992. **People of the Sea, The Search for the Philistine**, New York: Macmillan Publishing Company.

Finkelstein, Israel 1988. **The Archaeology of the Israelite Settlement**, Jerusalem: Israel Exploration Society.

Finkelstein, Israel 1992. "Pastoralism in the Highlands of Canaan in the Tird and Second Millennia B.C.E. . In: O. Bar-Yosef and A. Khazanov (eds.), **Pastoralism in the Levant: Archaeological Materials in Anthropological Perspectives**, Pp. 133- 142, Madison, Wisconsin: Prehistory.

Finkelstein, Israel 1994. "The Emergence of Israel: A Phase in the Cyclic History of Canaan in the Third and Second Millennia B.C.E. . In: Israel Finkelstein and Nadav Na'aman (eds.), **From Nomadism to Monarchy:**

Archaeological and Historical Aspects of Early Israel, pp. 150-178, Jerusalem: Israel Exploration Society.

Finkelstein, Israel 1995. "The Great Transformation: The 'Conquest' of the Highlands Frontiers and the Rise of Territorial States. In: Thomas Levy (ed.), **The Archaeology of Society in the Holy Land**, Pp. 349-365, London: Leicester.

Finkelstein, Israel 1996. "Ethnicity and Origin of the Iron I Settlers in the Highland of Canaan: Can the Real Israel Stand Up?", **Biblical Archaeologist** 4/59: 198-212.

Finkelstein, Israel 1997. "Pots and People Revisited: Ethnic Boundaries in Iron I. In: Neil Silberman and Dan Small (eds.), **The Archaeology of Israel: Constructing the Past, Interpreting the Present**, Pp. 216-237, Sheffield: Sheffield.

Finkelstein, Israel 1998. "Bible Archaeology or Archaeology of Palestine in the Iron Age? A Reminder", **Levant** 30: 167-174.

Finkelstein, Israel 2007a. "Patriarchs, Exodus, Conquest: Fact or Fiction?". In: Israel Finkelstein and Amihai Mazar (eds.), **The Quest for the Historical Israel: Debating Archaeology and the History of Israel**, Pp. 41-55, Atlanta: Society of Biblical Literature.

Finkelstein, Israel 2007b. "When and How Did the Israelite Emerge?". In: Israel Finkelstein and Amihai Mazar (eds.), **The Quest for the Historical Israel: Debating Archaeology and the History of Israel**, Pp. 73-83, Atlanta: Society of Biblical Literature.

Finkelstein, Israel and Silberman, Neil 2001. **The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Israel and the Origin of Its Sacred Texts**, New York: The Free Press.

Garrod, Dorothea and Bate, D. M. 1937. **The Stone Age of Mount Carmel**, Oxford.

Gottwald, Normann 1979. **The Tribes of Yahwa: A Sociology of the Religion of the Liberated Israel 1250-1050 B.C.E.** New York: Orbis Books.

Gottwald, Normann 1983. "Two Models for the Origins of Ancient Israel: Social Revolution or Frontier Development. In: H. B. Huffmom, F.A. Spina and A. R.

W. Green (eds.), **The Quest for the Kingdom of God: Studies in Honor of George Mendenhall**, Pp. 5-24, Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.

Gottwald, Normann 1985. "The Israelite as a Social Revolutionary Movement". In: **Biblical Archaeology Today: Proceedings of the International Congress on Biblical Archaeology, Jerusalem, April 1984**, Pp. 34-46, Jerusalem: Israel Exploration Society.

Gray, J. 1965. "The Legacy of Canaan, 2nd Edition", **Vetus Testamentum Supplement** 5, Leiden.

Hackett, J. A. 1997. "Canaan". In: Eric M. Meyers (ed.), **The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Volume I**. Pp. 408-409, New York: Oxford University Press.

Harrison, Timothy 2009. "New-Hittites in the "Land of Palestine", Renewed Investigation at Tell Ta'yinat on the Plain of Antioch", **Near Eastern Archaeology** 72,4: 174-189.

Harrison, Timothy 2013. "Tayinat in the Early Iron Age". In: K. Aslihan YENER (ed.), **LATE BRONZE-IRON AGE RELATIONS BETWEEN SYRIA AND ANATOLIA, Proceedings of a Symposium held at the Research Center of Anatolian Studies, Koç University, Istanbul** May 31-June 1, 2010, Pp. 61-88, Leuven: Peeters.

Isselin, B. S. J. 2001. **The Israelites**, Minneapolis: Fortress Press.

Kafafi, Zeidan 2014. "New Insights on the Copper Mines of Wadi Faynan/Jordan", **Palestine Exploration Quarterly** 146//4: 263-280.

Kenyon, Kathleen 1957. **Digging Up Jericho**, London:

Kenyon, Kathleen 1963. **Amorites and Canaanites**, London: Schweich Lectures.

Kenyon, Kathleen 1970. **Archaeology in the Holy Land**, London: Ernest Benn Limited.

Lemche, N. P. 1985. **Early Israel: Anthropological and Historical Studies on the Israelite Society before the Monarchy**, Leiden: E. J. Brill.

Lemche, N. P. 1991. "The Canaanites and Their Land,

The Tradition of the Canaanites”, **Journal of the Study of the Old Testament Supplement Series** 110, Sheffield: JSOT Pres.

Meek, Theophile 1936. “The Israelite Conquest of Ephraim”, **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 61: 17-19.

Mendenhall, George 1962. “The Hebrew Conquest of Palestine”, **Biblical Archaeologist** 25/3: 66-87.

Mendenhall, George 1973. **The Tenth Generation: The Origins of the Biblical Tradition**, Baltimore: John Hopkins University.

Miller, P. D. Jr. 1981. “Ugarit and the History of Religion”, **Journal of the Northwest Semitic Languages** 9, 119:128.

Noth, Martin 1948. **Überlieferungsgeschichte des Pentateuch**, (trans, by B. Anderson 1972), Prentice-Hall,

Noth, Martin 1958. **The History of Israel**, New York: Harper and Row.

Tubb, Johnathan 1998. **Peoples of the Past**, London: The British Museum Press.

Weippert, Manfred 1971. **The Settlements of the Israelites Tribes in Palestine**, Translated by J. Martin, London: SCM Press.

Weippert, Manfred 1982. “Remarks on the History of Settlement in Southern Jordan during the Early Iron Age”. In: Adnan Hadidi (ed.), **Studies in the History and Archaeology of Jordan I**. Pp. 153-162, Amman: The Department of Antiquities of Jordan.

Wilson, J. A. 1969. “Egyptian Myths, Tales and Mortuary Texts”. In: James Pritchard (ed.), **Ancient Near Eastern Texts Related to the Old Testament**, Pp. 3-37, Princeton: Princeton University Press.

Wright, George Ernest 1940. “Epic of the Conquest”, **Biblical Archaeologist** 3/3: 25-40.

Wright, George Ernest 1960. **Biblical Archaeology: Albrided ed.** Philadelphia: Westminster.